Journal of Al-Farahidi's Arts, No: 63: 271-291
Doi: https://doi.org/10.25130/jfa.17.63.12

P-ISSN : 2074-9554 | E-ISSN: 2663-811
Journal of Al-Farahidi's Arts
available online at : fja.tu.edu.iq/index.php/fja
Tikrit University
J.F.A
Journal of Al-Frahedis

Early Islamic Poetry and the Environment An Ecocritical Reading of the Invocation of Non-Living Environmental Elements as Symbols of Faith

Assistant Prof. Dr. Jamal Fadhil Farhan
E-Mail: jamal.fadhil.f@uoanbar.edu.iq

Keywords:
Ecological Criticism, Early Islamic Poetry, Environmental Elements, Symbolism of Faith

Article history:

Received	3/11/2025
Received in revised form	4/11/2025
Accepted	9/11/2025
Available online	30/12/2025

E-mail Jaa@ tu.edu.iq

©THIS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CCBY LICENSE
http:// creativecommons.org/licenses/by/4.0

A B S T R A C T

This study aims to explore the relationship between Islamic literature and the non-living environment through a contemporary critical reading that seeks to analyze early Islamic poetry from an ecological perspective. This perspective views poetry as embodied in and connected to the environmental context, focusing on the concept of belonging that the creator attempts to instill within the community he lives in. Therefore, our ecological reading places special emphasis on the cultural elements: language and poetry, and their relationship with the environment, as well as revealing how early Islamic poetry utilized various environmental elements as symbols of faith. This reading relies on environmental criticism, a modern approach in literary criticism concerned with revealing the status of the environment and its various elements in literary texts, and how these elements are evoked to convey specific meanings. The study shows that there is an interaction between religion and the environment in Islamic perception, which is reflected in the invocation of various environmental elements by early Islamic poets as symbols of faith in their poetry, including: (water, fire, earth, mountains, sky, light, and dawn). The ecological reading proves that early Islamic poetry is not merely a religious discourse, but a text that interacts with the environment, carrying both intellectual and spiritual dimensions, deserving of multiple interdisciplinary approaches.

شعر صدر الإسلام والبيئة قراءة أيكولوجية في استحضار عناصر البيئة غير الحيّة بوصفها دلالة على الإيمان

أ.م.د. جمال فاضل فرحان/ جامعة الانبار / كلية التربية الأساسية–حديثة / قسم اللغة العربية

المستخلص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة العلاقة بين الأدب الإسلامي والبيئة غير الحيّة، عبر قراءة نقدية معاصرة تسعى إلى قراءة النص الشعري في صدر الإسلام من منظور أيكولوجي يرى أنّ النص الشعري متجسّد في السياق البيئي ومتّصل معه، وهو ينصبّ على معنى الانتماء الذي يحاول المبدع أن يرسّخه ضمن بيئة المجتمع الذي يحيا فيه، من ثَمّ تركّز قراءتنا الأيكولوجية تركيزًا خاصًّا على العناصر الثقافية: اللغة والشعر، وعلاقتهما بالبيئة، والكشف عن توظيف الشعر في صدر الإسلام لعناصر البيئة المختلفة بوصفها دلالة على الإيمان. وقد اعتمدَتْ هذه القراءة النقد البيئي الذي يعدُّ اتجاهًا حداثويًّا في النقد الأدبي همّه الكشف عن مكانة البيئة بعناصرها المختلفة في النصّ الأدبي، وكيفية استحضارها لبيان دلالات معينة. وأظهرت هذه القراءة ثَمّة تفاعلاً بين الدِّين والبيئة في التصوّر الإسلامي، انعكس في استحضار الشعراء الإسلاميين لعناصر البيئة المختلفة بوصفها دلالة على الإيمان في شعرهم، من أبرزها: (الماء، والنار، والأرض، والجبل، والسماء، والنور، والصبح). وقد أثبتت القراءة الأيكولوجية أن الشعر الإسلامي المبكّر ليس مجرّد خطاب دعوي فحسب، بل هو نصّ متفاعل مع البيئة، حامل لأبعاد معرفية وروحية، يستحق مقاربات متعدّدة التخصّصات

الكلمات المفتاحية : نقد أيكولوجي ، شعر صدر الإسلام ، عناصر البيئة ، الدلالة على الإيمان.

المقدمة

الحمدُ لله الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، له ملكوت السموات والأرض، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

فإنّ التراث الأدبي العربي مادة غنية للدرس والنقد، ومن ثمّ كان اهتمام الباحثين المعاصرين مستمرًّا بدراسة هذا التراث في ضوء المناهج النقدية الحداثوية، التي من ضمنها النقد الإيكولوجي(البيئي)، الذي يرى أنّ النص الشعري متجسّد في السياق البيئي ومتّصل معه، وهو ينصبّ على معنى الانتماء الذي يحاول المبدع أن يرسّخه ضمن بيئة المجتمع الذي يحيا فيه، ومن ثَمّ وجب التركيز على العناصر الثقافية: اللغة والأدب، وعلاقتهما بالبيئة، والكشف عن توظيف الأدباء لعناصر البيئة المختلفة في نصوصهم الإبداعية.

وعلى وفق ذلك فالنقد الأيكولوجي يهتم بدراسة النصوص الأدبية، في ضوء نظرية نقدية تبحث عن مكانة البيئة، أو المكان، أو الأرض، أو الحياة، داخل الإبداع الفني، وذلك بالتنظير، والتحليل، والقراءة والفحص والدراسة؛ بغية رصد رؤى المبدعين تجاه البيئة، وعلاقتها بتأطير المعنى، والدلالة.

ولطالما احتلّت البيئة مكانةً مركزية في التعبير الشعري العربي؛ فقد عدّها الشعراء مرآةً لعظمة الخالق، ودليلًا على تجليات القوة الإلهية. ومع بزوغ فجر الإسلام، جاءت قيمٌ جديدة غيّرت نظرة الإنسان إلى عناصر البيئة المختلفة؛ إذ أصبحت مظاهر الكون المادية، والحسيّة، تجسيدًا لآيات الله (عزّ وجل)، وعلامة على عظمته ورحمته. ومن هنا برز شعر صدر الإسلام الذي سعى شعراؤه إلى توظيف عناصر البيئة غير الحيّة؛ لإبراز الحقائق الإيمانية، وترسيخ مفهوم التوحيد في نفوس المسلمين.

وعلى وفق ذلك كان اختيار دراسة شعر صدر الإسلام – الممتدّ من بعثة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى انتهاء حقبة الخلفاء الراشدين– في ضوء المنهج الإيكولوجي – الذي يهتم بدراسة العلاقة بين الأدب والبيئة– هو محور اهتمامنا في هذا البحث؛ بغية الكشف عن الدلالة الإيمانية التي بثّها الشعراء في هذا العصر عن طريق عناصر البيئة ولاسيما غير الحيّة، ولإثبات ارتباط الشاعر الإسلامي بتلك العناصر، واستثماره لها في التعبير عن الدلالة الإيمانية في نصوصه الشعرية.

وتتمثل إشكالية هذا البحث في محاولته الإجابة عن الأسئلة الآتية: كيف استحضر الشاعر في عصر صدر الإسلام عناصر البيئة غير الحيّة بوصفها دلالة على الإيمان في بناء نصوصه الشعرية؟ وهل هناك ارتباط عضوي بين عناصر هذه البيئة، من مثل: (الماء، والنار، والأرض، والجبال، وغيرها)، والدلالة على الإيمان في النصّ الشعري لهذا العصر؟ وهل جاءت عناصر(السماء، والنور، والصبح) دالة على الإيمان – أيضًا– في هذا الشعر؟

وبناء على ذلك تهدف هذه القراءة النقدية إلى إبراز كيفية استحضار الشاعر في هذا العصر عناصر البيئة غير الحيّة بوصفها دلالة على الإيمان في شعره، وبيان الارتباط العضوي بينها وبين هذه الدلالة؛ في محاولةٍ لإثبات ثَمّة تفاعل بين الدِّين والبيئة في التصور الإسلامي، انعكس في استحضار الشعراء الإسلاميين لعناصر هذه البيئة بوصفها دلالة على الإيمان في شعرهم، ومن ثَمّ فإنّ نصوصهم الشعرية متجسّدة في السياق البيئي، ومتّصلة معه.

ونحسبُ أنّ أهمية هذه القراءة النقدية تتمثل في وصفها إحدى القراءات المعاصرة التي تهتم بتوسيع مسالك النقد في المنجز الشعري التراثي، بتحليل قوالبه بوساطة مناهج ومقاربات نقدية حداثية، وتسليط الضوء على النقد الإيكولوجي الذي يبرز العلاقة بين الأدب والبيئة، وسعيها الجاد للكشف عن كيفية استحضار الشاعر الإسلامي ولاسيما في عصر صدر الإسلام البيئة بوصفها دلالة على الإيمان في بناء نصوصه الشعرية.

وستتبع هذه القراءة المنهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد على الملاحظة والاستقراء والوصف والتصنيف والتحليل؛ فهي تتوخى استكشاف العلاقة بين الأدب والبيئة في سياق ربط البُنى بالدلالة من خلال التعمّق في تحليل عناصر الملاحظات الاستقرائية التي تمّ تحديدها عن طريق القراءة النقدية للمنجز الشعري في عصر صدر الإسلام، مع استخدام النقد البيئي الذي يعدُّ اتجاهًا حداثويًّا في النقد الأدبي، همّه الكشف عن مكانة البيئة بعناصرها المختلفة في النصّ الأدبي، وكيفية استحضارها لبيان دلالات معينة.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يسير على وفق هيكلية تكشف –أولاً– عن الأسس النظرية للقراءة الإيكولوجية في الشعر الإسلامي، عبر توضيح مفهوم الإيكولوجيا في الدراسات الأدبية، وبيان التفاعل الكبير بين الدّين والبيئة في التصوّر الإسلامي. ثُمّ العمل –ثانيًا– على استقراء أبرز العناصر البيئية غير الحيّة المتجلية في الطبيعة التي يحيا فيها الشاعر الإسلامي،

فعمد إلى استحضارها في شعره؛ للدلالة على الإيمان، كـــ:(الماء)، و(النار)، و(الأرض، والجبال)، و(السماء)، و(النور)، و(الصبح).

أولاً: (الأسس النظرية للقراءة الإيكولوجية في الشعر الإسلامي).

أ-مفهوم الإيكولوجيا في الدراسات الأدبية:

يُعدُّ مصطلح (النقد الإيكولوجي) أو النقد البيئي حقلًا نقديًّا جديدًا شاع في التسعينيات من القرن العشرين، عُرف في الأدب الأوروبي والأميركي، ثم وصل حديثًا إلى البلاد العربية، وكان يمثّل نتيجة للأدب البيئي، وعلى الرغم من ذلك إلا أنه توجد شذرات من النقد الإيكولوجي في التراث النقدي العربي، غير أن تطبيقه كان يشوبه عمومية الرؤى أحيانًا، ويختلط مع مناهج نقدية أخرى في بعض الأحيان(ينظر: بدران، 2015، ص193).

وتعدُّ الدراسة الإيكولوجية واحدةً "من فروع الدراسات الثقافية، بل وامتدت إلى الدراسات النقدية والأدبية؛ للكشف عن موقف الإنسان تجاه ظواهر البيئة، وأثر هذه البيئة في نتاجه، وبعد اتساع التيارات المعرفية ظهرت الدراسات الإيكولوجية كنظرية متكاملة"(العنتبلي، 2022، ص4347).

فالإيكولوجيا هي العلم الذي يدرس العلاقة المتبادلة بين الإنسان والبيئة، ويُشتق لغويًّا من الأصل اليوناني (Oikos) بمعنى المنزل أو مكان المعيشة، ومن (Logic) بمعنى علم، وبذلك فالإيكولوجيا علم يدرس تأثير البيئة في الإنسان الذي يعيش فيها(ينظر: العنتبلي، المصدر نفسه، 4347-4348). وموضوع النقد الإيكولوجي هو الترابطات بين الثقافة الإنسانية والعالم المادي، بين البشري وغير البشري، ومن ثَمّ فإن النقد الإيكولوجي يركّز على العناصر الثقافية، واللغة والأدب وعلاقتهما بالبيئة؛ أي أن هذا النقد هو موقف حداثوي يضع إحدى قدميه في الأدب، والأخرى على الأرض(ينظر: برانش، 2007، ص44).

فالنقد الإيكولوجي يهتم كثيرًا بالتمثيلات الأدبية للبيئة، وهو حسّاس للتوظيفات التي ترسخ المؤلّف أو الشخصية أو العمل الأدبي ضمن المنظومة البيئية، فتزيح تلك المقاربة التركيز النقدي من العلاقات الاجتماعية إلى العلاقات البيئية المختلفة، وترى الفرد أنه عنصر في المنظومة الإيكولوجية وفي نماذج التنظيم البشري، وتقيّم تلك المقاربة عاليًا الإحساس الأدبي بالمكان، ليس كوسط ولكن كتعبير عن الارتباط بسياق بيئي محدّد أو كاغتراب عنه، وأنها تقوم بامتحان معمارية العلاقة التبادلية بين الأدب والشكل العضوي، وتنتظر من الأدب أن

يعمل على تقديم تأمّلًا حول العلاقة بين الطبيعتين البشرية وغير البشرية، وأن يقوم باقتراح الأساليب التي ربما تكون كفيلة بإعادة تأويل هذه العلاقة أو إصلاحها (ينظر: برانش، المصدر نفسه، ص46-47) .

ويُعنى النقد الإيكولوجي بدراسة مركزية المناظر البيئية في كلّ من الخطاب الشعري والنثري، بشرط أن يتم تجاوز حدّها الظاهري إلى تحليل انعكاسها على الذات، ويجيب عن أسئلة معينة على نحو: كيف قدّم المبدع هذه المشاهد؟ وما موقفه منها؟ بعبارة أخرى: "أنّ النقد الإيكولوجي يدرس المكان في العمل الأدبي من زاوية تفاعل الشخصيات مع بيئاتهم، وبيان إنْ كان هناك تضارب حاصل في هذا التفاعل، والعناية بتقديم مقترح لتغييب هذا التضارب"(محمد، 2022، ص462).

فالنقد الإيكولوجي –من بعد– يقوم بتحليل الجوانب الثقافية والأدبية المؤثّرة في رؤية الكاتب، ويعمل على كشف الوظيفة البيئية المتوارية خلف الصفة الجمالية، كما يبحث عن سبب حضور البيئة في النص الأدبي ومكوناتها التي عُبِّر بها في الصور البلاغية، وما ينطوي عليه العمل من قيم إيكولوجية، فضلا عن الكشف عن وجهات النظر الخاصة بالبيئة داخل النص، وتناص النص مع نصوص أخرى لخدمة وجهة النظر البيئية، وتحدّد رؤى المبدعين اتجاهها، ودراسة القيم الجمالية والأخلاقية التي يحملها الأدب تجاه المنظومة البيئية (ينظر: محمد، المصدر نفسه، ص. ن).

وبما أنّ عناصر البيئة –من المنظور البيئي– تقسم على قسمين رئيسيين: عناصر حيّة، تشمل: الكائنات الحيّة مثل النباتات، والحيوانات، والإنسان، والكائنات الدقيقة. وعناصر غير حية، تشمل: المكونات الفيزيائية والكيميائية، مثل: الماء، والهواء، والتربة، والصخور، والسماء، وغيرها (ينظر: النظم البيئية: ما هي وأهميتها؟، مقال إلكتروني)؛ لذا ستُعنى قراءتنا الأيكولوجية في هذا البحث بتحليل النصوص الشعرية من منظور العلاقة بين الإنسان والبيئة غير الحيّة فقط، أي: بين الإنسان وكُلّ ما يحيط به من ماء، ويابسة، وفضاء خارجي، وأشكال أخرى. مُظهرةً كيف يُعبّر شعر صدر الإسلام عن مفاهيم الارتباط بالكون والتأمّل في آيات الخلق؛ ففي هذا الشعر يتجلّى هذا الارتباط في توظيف عناصر البيئة بوصفها رمز للثبات الإلهي؛ فكلما تناول الشاعر صورة شروق الشمس، أو نسيم الصحراء –على سبيل المثال– كان ذلك دلالة على عظمة الخالق، وإشعاره بالهدى والرحمة.

ب–التفاعل بين الدّين والبيئة في التصور الإسلامي:

ثمّة تفاعل كبير بين الدّين والبيئة في التصوّر الإسلامي؛ إذ حُظيت البيئة بمكانة كبيرة في الفقه الإسلامي، فغُيِّرت فتاوى كثيرة تبعًا لتغيّر هذه البيئة، والأزمنة (ينظر: بدران، 2015، ص196)، كما ورد العديد من عناصر البيئة سواء كانت حيّة أم غير حيّة في القرآن الكريم، قال الله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾(الأنعام: أية 95).

فقد جاءت عناصر البيئة الحيّة من (الحَبِّ، والنَوى) في الآية الكريمة؛ لبيان قدرة الله سبحانه وتعالى، وبيان أحقيّته وحده في العبادة، قال (ابن جرير الطبري): "وهذا تنبيه من الله جلّ ثناؤه هؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجته عليهم، وتعريف منه لهم خطأ ما هم عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياه. يقول تعالى ذكره: إنّ الذي له العبادة أيها الناس دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان، هو الله الذي فلق الحَبّ، يعني: شَقَّ الحَبَّ من كل ما ينبت من النبات، فأخرج منه الزرع والنوى من كل ما يغرس مما له نواة، فأخرج منه الشجر. والحَبَّ جمع حَبّة، والنوى: جمع النواة" (الطبري، 2001، ص420/9).

فالبيئة في التصوّر الإسلامي هي شاهدة على ألوهية رَبّ الكون (عزّ وجل)، وهي حجّة على المشركين الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى، وحجّة على الكافرين بالله (سبحانه وتعالى)، وبذلك تكون البيئة في التصوّر الإسلامي ذات إيحاءات دينية؛ إذ إنّها أدلة، وعلامات على وجود الله سبحانه وتعالى.

ومن عناصر البيئة غير الحيّة التي ذُكِرَت في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: آية 54).

ففي الآية الكريمة ذُكرت عناصر البيئة: (الشمس، والقمر، والنجوم)، قال (الماوردي): "{وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ} يحتمل وجهين: أحدهما: مذللات بقدرته. والثاني: جاريات بحكمه. {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} يحتمل وجهين: أحدهما: أنه مالك الخلق وتدبيرهم. والثاني: إليه إعادتهم وعليه مجازاتهم" (الماوردي، د. ت، ص230/2).

فالتصوّر الإسلامي لعناصر هذه البيئة جاءت –هنا– على أنّها مذللات بقدرة الله (عزّ وجل)، وجاريات بحكمه، وبذلك فإن البيئة في هذا التصور، هي عناصر إثبات قدرة الله (سبحانه وتعالى) وحكمته، وهي أدلة وعلامات تحتاج إلى تفكّر، وتعقّل حتى تؤدّي إلى عبادة الله (جلّ جلاله) القادر الخالق على أتم وجه.

ومن عناصر البيئة غير الحيّة –أيضًا– التي مُثِّل بها في القرآن الكريم، (الحجارة)، قال الله تعالى:﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة: آية 74).

فقد مُثّل بـــ(الحجارة) في هذه الآية بـــ(القلوب القاسية)، قال (الماتريدي): "ضرب اللَّه لقلوبهم مثلًا بالحجارة، وشبهها بها؛ لتساويها، وشدة صلابتها، وأنها أشدُّ قسوة من الحجارة... مع فقد أسباب الفهم والعقل عنها، وزوال الخطاب منها" (الماتريدي، 2005، ص496/1). فعناصر البيئة –هنا– تُوظّف في التشبيه؛ لإظهار المعاني من الصورة المجرّدة إلى الصورة المادية المحسوسة.

ومن عناصر هذا البيئة –كذلك– التي وردت في القرآن الكريم (الجبل)، الذي يتسم بالقوة والصلابة والجمود، فكيف إذا أُنزل عليه القرآن؟ قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الحشر: آية 21).

ففي هذه الآية يتبدّل حال (الجبل) من القوة والصلابة والجمود إلى الخشوع والتصدع، قال (القشيري): "أي لو كان للجبل عقل وصلاح فكر وسرّ، وأنزلنا عليه هذا القرآن لخضع وخشع. ويجوز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال: (تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ)، ويدل عليه أيضا قوله: (وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ): ليعقلوا ويهتدوا، أي بذلك أمرناهم، والمقصود بيان قسوة قلوبهم عند سماع القرآن" (القشيري، د.ت، ص566/3).

وهكذا تُوظّف عناصر البيئة المختلفة في ضرب المثل، ومن ثَمّ يكون التصوّر الإسلامي لهذه العناصر على أنّها علامات، وأدوات تعبير تُبيّن الصورة، وتُقرّبها في شكلٍ ماديٍّ للمخاطب. ومن الطبيعي أن يستحضرها الشعراء، ويوظّفوها في بناء نصوصهم الشعرية، وصورهم الفنية؛ لدلالات إيمانية مختلفة.

ثانيًا: (استحضار البيئة غير الحيّة بوصفها دلالة على الإيمان في الشعر الإسلامي).

أ-(الدلالة الإيمانية للماء):

لقد عرف القدماء أثر البيئة في استحضار المعاني التي يريدها الشاعر، فقد قيل: "لكُثير: كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر؟ قال: أطوف في الرباع المحيلة؛ والرياض المعشبة، فيسهل علي أرصنه، ويسرع إلى أحسنه. وقال الأصمعي: ما استدعي شارد بمثل الماء الجاري، والشرف العالي، والمكان الخالي وقيل: الحالي، يعني الرياض وحدثني بعض أصحابنا من أهل المهدية وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكدية هو أشرفها أرضًا وهواء قال: جئت هذا الموضع مرة فإذا عبد الكريم على سطح برج هنالك قد كشف الدنيا، فقلت: أبا محمد؟ قال: نعم، قلت: ما تصنع ههنا؟ قال: ألقح خاطري، وأجلو ناظري، قلت: فهل نتج لك شيء؟ قال: ما تقر به عيني وعينك إن شاء الله تعالى، وأنشدني شعرًا يدخل مسام القلوب رقة" (القيرواني، 1981، ص1/206-207).

و(الماء) عنصر من عناصر البيئة التي كان لها حضورٌ فعّال في شعر صدر الإسلام بما تدلُّ عليه من حياة، وتجدّد روحي، فالقراءة الإيكولوجية لعنصر البيئة (الماء) في هذا الشعر تُحيل إلى دلالات دينية تنمُّ عن الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فهذا عبد الله بن رواحة (ت 8هـ)، يقول في أبيات له (ابن رواحة، 1982، ص165):

(من الوافر)

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَـــقٌّ وَأَنَّ النَّـــارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا

وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَـاءِ طَـافٍ وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِيـــنَا

وَتَحْمِلُـهُ مَلَائِكَـــةٌ كِـــرَامٌ مَلَائِكَـةُ الْإِلَهِ مُسَوِّمِينَا

فقد وظّف الشاعر هنا (الماء) وهي عنصر من عناصر البيئة غير الحيّة في دلالة إيمانية تكشف عن إيمانه بالله سبحانه وتعالى، فـ(الماء) ليست عنصرًا من عناصر تلك البيئة فقط، وإنما عنصر مادي يُحيل إلى الإيمان في ذلك السياق؛ إذ إنّ الشاعر استثمر الماء في سياق ديني، وهنا يطرح النقد الأيكولوجي بعض الأسئلة، من مثل: كيف تمّ تمثيل البيئة في هذا النص؟ (ينظر: حمداوي، د.ت، 297).

وتأتي الإجابة بأنّ البيئة حاضرة في هذا النص، وتم تمثيلها بشكلٍ دينيّ؛ لأنّ (الماء) حاضرة في دلالة دينية تابعة لِمَا جاء في القرآن الكريم، ومن ثَمّ يكون هذا الكتاب المقدّس قد أثّر في دلالة حضور (الماء) في هذا الشعر، ويتأكّد ذلك بين ما جاء في البيت الشعري الثاني، وبين قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (سورة هود: آية 7).

قال (ابن جرير الطبري): "وقوله: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: 7]، يقول: وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض وما فيهن" (الطبري، 2001، ص330/12). وبذلك فالشاعر رأى عناصر البيئة، وشعر بها، وتفاعل معها، ورآها مرة أخرى رؤية إيمانية؛ فالماء ليست للشراب، أو لسقيا الزرع فقط، بل هي أيضًا عنصر من العناصر الدالة على إيمان الفرد بوجود الله (سبحانه وتعالى)، وعلى إسلامه الذي جعله يقرُّ بأن عرش الله (عزّ وجل) كان على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض.

ب-(الدلالة الإيمانية للنار):

عمل شعراء عصر صدر الإسلام على توظيف العناصر البيئية في استحضار قدرة الله (سبحانه وتعالى)، والدلالة على وجوده (عزّ وجل)، ومن هذه العناصر (النار)؛ فالقراءة الإيكولوجية في بعض أشعار صدر الإسلام تبين الرؤية الإسلامية لهذا العنصر البيئي، تلك الرؤية التي تكشف عن إيمان الشخص بالله (جلّ جلاله)، وبقدرته، فهذا لبيد بن ربيعة العامري (ت41هـ) يقول في أحد أبياته (ابن ربيعة، 2004، ص82):

(من الكامل)

والمَــاءُ والنِّيرانُ مِنْ آياتِهِ فِيهِنَّ مَوْعِظَـــــــــةٌ لِمَنْ لمْ يَجْهَــلِ

فقد وظّف الشاعر (النار)، مقابل (الماء)؛ للتعبير عن قدرة الله (سبحانه وتعالى)، ومن ثمّ بيان إيمانه بالله (عزّ وجل)، فالخالق القادر خلق بقدرته الأضداد البيئية(ماء X نار)، ومن هنا يظهر مدى تفاعل الشاعر مع البيئة للإتيان منها بما يدل على قدرة الله، وبذلك فهو في هذا البيت الشعري قد تفاعل مع البيئة، ونظر إليها على أنّها دلائل إيمانية على وجود الخالق، ووحدانيته، وقدرته، وأنّ في هذه الدلائل مَوْعِظَة لِمَنْ لم يَجْهَل. فالشاعر لم ينظر للنار على أنها مادة حارقة، أو إلى فوائد النار، ووظائفها في الصحراء، وإنّما نظر إليها على أنها المقابل

للماء، وهما معًا دليل على وجود الله (جلّ جلاله) وقدرته، وتلك الدلالة هي –بلا شك– نتيجة التفاعل المتبادل بين الدّين الإسلامي وعناصر البيئة، وتأثيرهما على المبدع، وهو ما تهتم به القراءة الأيكولوجية، التي تُعنى "بالتفاعل الكائن ما بين الإنسان والكائنات وعناصر البيئة، وذلك مما يشكّل مؤشرًا على ضمانة مهمة، وهي بقاء الإنسان داخل المنظومة البيئية لا مستعليًا عليها" (عطية، 2023، ص243–244).

ج–(الدلالة الإيمانية للأرض، والجبال):

يمكن قراءة حضور عنصر البيئة (الأرض) في شعر صدر الإسلام، بما تدلُّ عليه من وجود الله (سبحانه وتعالى)، فالقراءة الإيكولوجية لهذا العنصر البيئي في بعض أشعار هذا العصر توضّح قدرة الله (عزّ وجل)، وتبيّن مدى إيمان الشاعر الإسلامي بالله (جلّ جلاله)، ونظرته الفلسفية لهذا العنصر البيئي، ولا غرو في ذلك؛ فالنصوص الأدبية –في رأي مايكل برانش– نظرات فلسفية إيكولوجية، والأدب عنده يشترط دائمًا فهمنا الفلسفي للبيئة، وبوجهة النظر الأدبية الفلسفية الأيكولوجية يُشبّه النص الأدبي فعليًّا بمنظومة إيكولوجية(ينظر: النعاس، 2023، ص820). ومن أمثلة هذا التوظيف لعنصر البيئة (الأرض)، ما جاء في قول الشاعر لبيد بن ربيعة العامري؛ إذ يقول في بيت له (ابن ربيعة، 2004، ص82):

(من الكامل)

وَالأَرْضَ تَحْتَهُمُ مِهَادًا راسِـــــــيًا ثَبَتَتْ [خَوالِقُها] بصُمِّ الجَنـــــــــدَلِ"

فقد وظّف الشاعر (الأرض) وهي أحد عناصر البيئة في دلالة إيمانية تكشف قدرة الله سبحانه وتعالى الذي جعل الأرض مهادًا، ومن ثَمّ توضح إيمانه بالله سبحانه وتعالى، فكما أنّ الأرض عنصر بيئي، فهي أيضًا تدلُّ على إيمان الشخص بخالق الأرض (سبحانه وتعالى)، وهنا جاء توظيف الأرض في الشعر على أنّها من علامات وجود الله (عزّ وجل)، وبذلك تمثّل الشاعر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ (سورة النبأ: آية 6). مما أعطى المعنى ثراءً، وحيوية، وربط المعنوي بالحسّي؛ فالأرض من صنع الله (سبحانه وتعالى)، وهي آية من آياته المبيّنة للعباد على جعل الأرض كالفراش الممهد؛ ليتمكنوا من الاستقرار عليها، والانتفاع بها، والتقلّب فيها، كما يتقلّب الطفل في مهده، أي: فراشه؛ ليعرفوا قدرته العظيمة –التي لا يعجزها شيء– ومن ثَمّ توحيده، قال (الواحدي): "قوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا} أي فراشًا،

وبساطًا، ووطاء. (والمعنى: ذللناها للخلق حتى سكنوها، وساروا في مناكبها)" (الواحدي، 1430هـ، 115/23).

وبذلك فإن القراءة الإيكولوجية للبيت تدلُّ على أنّ النصّ الأدبي منظومة إيكولوجية يتفاعل الشاعر فيها مع عناصر البيئة للتعبير عن معنى ديني يتمثل في اتخاذها دلائل إيمانية على وجود الخالق ووحدانيته؛ فالشاعر لم ينظر للأرض على أنها محلّ المعاش، أو أنها تضاريس جغرافية ذات شكل معين، وإنّما نظر إليها على أنّها دليل على وجود الله (سبحانه وتعالى)، وهذه النظرة إلى عناصر البيئة توضح السمت الإيماني الذي يسمُ عناصر البيئة، والذي تناوله الشعراء كمحدّدات إيمانية تدلُّ على إيمانهم بالله (جلّ جلاله)، واتصالهم بالرؤية الإسلامية للبيئة.

وإذا كانت المقاربة الإيكولوجية تعتمد على الفكر الإيكولوجي عامة، الذي ينبع من علم الإيكولوجيا الذي يُعنى بدراسة الروابط، والعلاقات القائمة بين عناصر البيئة، وليس الفروق بينها، ضمن منظومتها البيئية الخاصة (ينظر: العنتبلي، 2022، 4345)، فإنّ قراءتنا الإيكولوجية تلمس وجود علاقة بين الجبال، والأرض في البيت الشعري؛ فـ(الجبال) هي وسيلة حفظ الأرض، وثباتها بإذن الله (سبحانه وتعالى)، و(الأرض) هي حاملة هذه الجبال بقدرته (عزّ وجلّ). وهذه العلاقة تُحيل إلى التوازن البيئي الذي هو سبب من أسباب الحياة للإنسان على هذه الأرض، وبذلك فذكر هذه العلاقة–هنا– ينبئ بوجود الله (سبحانه وتعالى) من جهة، ويفصح عن قدرة الشاعر الإبداعية على تمثّلها في بناء نصوصه الشعرية من جهة أخرى.

فـ(الجبال) ليست حجارة صمّاء فقط، بل هي –أيضًا– في تفاعلها مع الأرض، وما يُحدثه هذا التفاعل من توازن بيئي يُحيل إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى؛ ومن ثم فإن الشاعر استثمر (الجبال) في علاقته التفاعلية مع (الأرض) في سياق ديني يوحي بدلالات إيمانية، تمثّلها من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (سورة النبأ: آية 6–7)؛ فالجبال من صنع الله (سبحانه وتعالى)، ومن ثمّ فهي آية من آياته للعباد، قال (القرطبي): "(وَالْجِبالَ أَوْتادًا) أي لتسكن ولا تتكفأ ولا تميل بأهلها" (القرطبي، 1964، 171/19).

و من قوله تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الرعد: آية3)؛ فهذه الآية

"إنّما ذُكِرَتْ ليستدل بها على وجود الصانع، والشرط فيه أن يكون ذلك أمرًا مشاهدًا معلومًا حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع، وكونها مجتمعة تحت البيت أمر غير مشاهد ولا محسوس، فلا يمكن الاستدلال به على وجود الصانع" (الرازي، 1420هـ، ص5/19).

وبذلك يكون الشاعر قد تفاعل مع عناصر البيئة غير الحيّة، على أنّها دلائل إيمانية على وجود الخالق، ووحدانيته، وقدرته، ومن هذه النظرة إلى هذه العناصر يحدث تجدّد روحي بالتفكّر في بالبيئة على أنّ كل ما فيها علامات وإشارات إيمانية، ومحدّدات دينية، ودلائل روحية.

وغير بعيد عن الشاعر(لبيد بن أبي ربيعة) نجد الشاعر سيدنا (حسّان بن ثابت) رضي الله عنه(ت بين 35-40هـ) قد أفاد هو الآخر من (الجبل) -أيضًا- في الدلالة على الثبات والإيمان الراسخ في القلب والأحاسيس الروحية، فقال في أبياتٍ له (ابن ثابت، 1994، 189):

(من الطويل)

فما زالَ في الإسلامِ من آل هاشمٍ دعائمُ عزٍّ لا يزولُ ومفخرُ

همُ جبلُ الإسلام والناسُ حولَهُ رضامٌ إلى طودٍ يروقُ ويقهرُ

فقد وظّف الشاعر هنا (الجبل) وهو من عناصر البيئة غير الحيّة؛ كناية عن الرعاية، والركيزة، والثبات؛ فبنو هاشم همُ جبلُ الإسلام، والإسلام فيهم ثابت، والإيمان راسخ. ومن ثم فإن القراءة الإيكولوجية للجبل في هذا البيت توضح علاقة الشاعر بالبيئة التي استثمر دلالاتها في التعبير عن الحالة الإيمانية من جهة، وعن طبيعة الآخر (بنو هاشم) في نظره من جهة أخرى. وذلك عن طريق التشبيه البليغ؛ فالجبل ليس مادة صمّاء فقط في البيئة، وإنما هو دلالة على الثبات والرسوخ الإيماني في الذات الإنسانية.

د-(الدلالة الإيمانية للسماء):

إنّ الانتقال من العصر الجاهلي إلى عصر صدر الإسلام بفعل تأثير الإسلام في المجتمع العربي صحبه انتقال في طرائق التفكير، وأشكال الطباع، والتصوّرات، ولاسيما في تصور البيئة والتفاعل مع عناصرها المختلفة؛ فقد أشار أبو هلال العسكري إلى ذلك في قوله: "وإذا كان القوم فى قبيلة واحدة، وفى أرض واحدة، فإنّ خواطرهم تقع متقاربة، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة"(العسكري، 1419، 230). وقد كان ذلك عن طريق ملاحظة

"أشعار الشعراء التي كانت لاصقة ببيئاتهم ومعبرة عنها، فمن خلال قراءة واحدة يمكن للقارئ المعاصر أن يميز بين شعر بدوي وشعر حضري"(إيمان، 2023، ص10).

ومن خلال القراءة الإيكولوجية لشعر صدر الإسلام يُرى تأثير الإسلام في المجتمع العربي، وفي رؤيته لعناصر البيئة، من مثل رؤية المجتمع الإسلامي للسماء، تلك الرؤية التي أخذها الشعراء لبيان إيمانهم بالله سبحانه وتعالى من خلالها؛ فالقراءة الإيكولوجية لعنصر البيئة (السماء) في بعض أشعار صدر الإسلام تبيّن إيمان الشاعر بالله سبحانه وتعالى، فهذا سيدنا (حسان بن ثابت) يقول في بيت شعرٍ له (ابن ثابت، 1994، ص189):

(من الطويل)

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللهِ أَنَّ محمـــــــــدًا رسولُ الذي فوق السَّمَوَاتِ مِنْ عَلُ

هنا وظّف الشاعر (السّماء) وهي عنصر من عناصر البيئة في دلالة إيمانية تكشف عن إيمانه بالله (سبحانه وتعالى)، وبذلك أخرج (السماء) من كونها عنصرًا بيئيًّا فقط إلى كونها دالة على تصور إسلامي يزيد من إيمان الفرد بالله سبحانه وتعالى، الذي من شواهد وجوده تلك السماء؛ وهذه الرؤية الإسلامية للسماء مرتكزة على تمثّل الشاعر لقوله تعالى: ﴿ وهو الذي في السَّماء إلَهٌ وفي الْأَرْضِ إلَهٌ وهُوَ الْحَكيمُ الْعَليمُ﴾ (سورة الزخرف: آية 84).

ففي الآية الكريمة يجوز أن يكون "هو الله في السَّمَاوَات وفي الأرض، أي هو المعبود فيهما" (الزّجّاج، 1988، ص228/2)، وقال (الماتريدي) تفسير هذه الآية: " كأنه يقول – واللَّه أعلم –: إنكم تعلمون أن اللَّه – تعالى – هو المعبود في السماء، وهو المعبود في الأرض، والأصنام التي تعبدونها أنتم لا يعبدها إلا أنتم، فكيف تركتم عبادة المعبود الذي هو معبود في السماء والأرض، واخترتم عبادة من ليس بمعبود إلا بعبادتكم؟!. ويحتمل أن يقول: تعلمون أنتم أن اللَّه – سبحانه وتعالى – هو إله السماء والأرض وإله من فيهما وما فيهما، وأنه خالق ذلك كله" (الماتريدي، ص190/9).

وبذلك فالشاعر أحسّ بالبيئة، ورآها مرة أخرى رؤية إيمانية روحية، حاول توظيفها في شعره؛ لتحمل أبعادًا دلالية إيمانية. فـــ(السّماء) –بحسب هذه الرؤية– ليست منزل النجوم، ومحلّ سقوط الأمطار فقط، بل هي أيضًا عنصر من العناصر الدالة على إيمان الفرد بوجود الله سبحانه وتعالى، المعبود في السّماء وفي الأرض، ومن ثَمّ فالقراءة الإيكولوجية تُحيل إلى

انتقال دلالة السماء من عنصر من عناصر البيئة إلى قيمة إيمانية تدلّ على الإيمان بالمعبود سبحانه وتعالى.

وقال كعب بن مالك الأنصاري (ت50أو 51هـ) في بيتين من شعره:

(من الطويل)

وَفِينَا رَسُــولُ اللَّهِ نَتْبَعُ أَمْــرَهُ إِذَا قَــالَ فِينَا الْقَــــوْلَ لَا نَتَطَلَّعُ

تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِـــــنْ عِنْــــــــدِ رَبِّهِ يُنَزَّلُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ وَيُرْفَعُ

فقد وظَّف الشاعر هنا العنصر البيئي (السّماء) في دلالة إيمانية تُظهر توافقه مع التصور الإسلامي للسّماء؛ فهذه الأخيرة تجاوزت دلالتها البيئية إلى دلالة إيمانية تبين إيمان الشاعر بالله (سبحانه وتعالى)، وتلك الدلالة الإيمانية كانت نتيجة تناصّ الشاعر مع قول الله (عزّ وجل): ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (سورة النحل: آية 2).

قال (البيضاوي): "يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ بالوحي أو القرآن، فإنه يحيي به القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، وذكره عقيب ذلك إشارة إلى الطريق الذي به علم الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) ما تحقق موعدهم به ودنوه وإزاحة لاستبعادهم اختصاصه بالعلم به" (البيضاوي، 1418هـ، ص219/3)، وقال (النسفي): "{بالروح} بالوحي أو بالقرآن لأن كلًّا منهما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد أو يحيي القلوب الميتة بالجهل {مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُواْ} أن مفسرة لأن تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول ومعنى أنذروا {أَنَّهُ لآ إله إِلا أَنَاْ فاتقون} أعلموا بأن الأمر ذلك من نذرت بكذا إذا علمته والمعنى أعلموا الناس قولي لا إله إلَّا أنا فاتقون فخافون" (النسفي، 1998، ص202/2).

وبذلك فـ(كعب بن مالك) أحسّ بهذا العنصر البيئي، وحاول توظيفه إيمانيًّا؛ فـ(السّماء) ليست عنصرًا بيئيًّا فقط، بل هي أيضًا ذات دلالة على الهداية الإلهية بكل ما فيها من عظمة الخلق، والإبداع، والسرّ الإلهي. وبذلك فالقراءة الإيكولوجية هنا تُحيل إلى انتقال دلالة (السّماء) من عنصر من عناصر البيئة إلى دلالة أخرى تدلُّ على الهداية الإلهية، فمنها نزل الوحي أو القرآن؛ لأن كلًّا منهما يقوم في الدّين مقام الروح في الجسد، أو يحيي القلوب الميّتة بالجهل.

ه-(الدلالة الإيمانية للنور):

يُعد (النور) من أبرز العناصر البيئية التي وظّفها الشعر الإسلامي للدلالة على الإيمان والهداية والصفاء الروحي؛ فقد ارتبط النور في التصوّر الإسلامي بالحقّ الإلهي، وبالرسالة النبوية التي تنير دروب البشرية كما تنير الشمس الكون. وفي الشعر الإسلامي، تكرّر توظيف (النور) بوصفه رمزًا لإشراق العقيدة في القلوب، وتجلّي الهدى في ظلمات الجهل.

ومن خلال استدعاء هذا العنصر البيئي غير الحي في الطبيعي، أضفى الشعراء بُعدًا روحانيًا على الظواهر الكونية، ليصبح النور تجليًا مرئيًا لقوة الإيمان، ودليلاً على العلاقة المتناغمة بين الإنسان والكون في ظل العقيدة الإسلامية . وفي هذا السياق قال الشاعر كعب بن زهير بن أبي سلمى (ت نحو 26هـ)، (ابن زهير، 1997، ص67):

(من البسيط)

إنّ الرّســـــولَ لَنُــورٌ يُستضَاءُ بهِ وَصَارِمٌ من سيوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ

في عُصْبَةٍ من قَريشٍ قــال قائلُهم بِبَطْنِ مكّة، لَمّا أسلمــوا: زُولوا

ففي البيت الأول ذكر الشاعر عنصر البيئة (النور)؛ وذلك للدلالة على تصورات إسلامية إيمانية؛ إذ يُشبّه النبي (صلى الله عليه وسلم) بـــ(النور)، وهو عنصر بيئي طبيعي أساسي للحياة، ومن أهم رموز البيئة الطبيعية. وفي السياق الإيكولوجي نفسه، فإن النور يمثل الطاقة الطبيعية، والهداية، والنقاء، والتوازن البيئي. فضلا عن ذلك فإن توظيف (النور) في هذا السياق يُشير إلى أن وجود الرسول يحقق التوازن والصفاء في (البيئة البشرية)، مثلما (الشمس) تحقق التوازن في البيئة الطبيعية.

أما الشطر الثاني: "مهند من سيوف الله مسلول" ، يشير إلى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) هو أداة من أدوات القوة الإلهية التي تحمي الحق والعدالة. وفي السياق الإيكولوجي الرمزي، يمكن أن يُمثّل السيف هنا قوة الحماية البيئية، أي أنه لا يُستخدم للعدوان، بل للدفاع عن النظام، كما يُستخدم القانون لحماية البيئة من الفساد أو التخريب. وتكمن الرسالة البيئية الرمزية من البيت، في أن (النور) يمثل الهداية الطبيعية والصفاء البيئي، و(السيف) يمثل الحماية والتنظيم.

وهكذا يمكن فهم البيت بوصفه تصويرًا رمزيًا لدور النبي (صلى الله عليه وسلم)، بوصفه عنصرًا موازن في "البيئة الاجتماعية والروحية"، تمامًا كما توازن عناصر الطبيعة بعضها بعضًا.

وفي ضوء التحليل الإيكولوجي، يمكننا أن نرى أن الهداية الربانية تمثل شكلاً من أشكال الاتزان البيئي الداخلي والخارجي. ومن ثم فـــإن(النور) تحوّل من دلالاته البيئية المتمثلة بالضوء، إلى الدلالة على الإسلام والإيمان، مقابل الظلام الذي كان يلف البشرية قبل مبعثه (صلى الله عليه وسلم)، ويدلُّ على الكفر والشرك بالله سبحانه وتعالى.

ولا شكّ أنّ هذا التحوّل في رؤية عناصر البيئة قد حدث نتيجةً للتحولات والتغيّرات الفكرية والدينية التي أعقبت الإسلام، وأثّرت في رؤية الشعراء البيئية؛ فبعد أن وظفّ الشعراء –في العصر الجاهلي– النور في الدلالة على المعاني المادية، صار الشاعر في عصر صدر الإسلام يوظّفه للدلالة على المعاني الروحية المتمثلة في المعاني الدينية، والإيمان بالله ورسوله، الذي كشف به الله (سبحانه وتعالى) ظلام الكفر والضلال.

و– (الدلالة الإيمانية للصبح):

يشكّل (الصبح) أحد أبرز العناصر البيئية التي تواتر حضورها في الشعر الإسلامي، بوصفه رمزًا للإيمان، وبزوغ الهداية بعد ظلمة الشك والضلال؛ فقد ارتبط الصبح في التصوّر الإسلامي ببداية النور، وانكشاف الحق، وتجدّد الأمل، وهو لحظة كونية تُجسّد رحمة الله المتجددة في كل يوم. وفي الشعر الإسلامي، استُخدم هذا العنصر البيئي للدلالة على انبثاق العقيدة في النفوس، وانجلاء الظلمات المعنوية بنور الإيمان، ليصبح بذلك مشهدًا طبيعيًا محمّلاً بدلالات روحية عميقة.

ومن خلال توظيف هذا العنصر البيئي، عبّر الشعراء عن لحظة التحول من التيه إلى الهدى، ومن الغفلة إلى اليقين، في انسجام تام بين الإيقاع الكوني والإشراق الداخلي للروح المؤمنة. ومن شعر صدر الإسلام الذي تناول هذا العنصر البيئي في رؤية إسلامية جديدة، ما قاله عبد الله بن رواحة في الأبيات الشعرية الآتية (ابن رواحة، 1982، ص162):

(من الطويل)

وَفِينا رَسُـــولُ اللَّهِ يَتْلُـــو كِتابَهُ إذا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ ساطِعُ

أَرانا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنا بـــهِ مُوقِناتٌ أَنَّ ما قـــالَ واقِـــعُ

يَبيتُ يُجافِي جَنْبَهُ عَــنْ فِراشِهِ إذا اسْتَثْقَلَتْ بالكافِريــنَ المَضاجِـــعُ

فالشاعر هنا وظّف واحدًا من العناصر الزمنية للبيئة وهو (الصبح) للدلالة على نور الإسلام وضياء الإيمان الذي أشرق ومحا ظلام الكفر. (الصبح) هنا عنصر طبيعي، بيئي، يتجدّد كل يوم، ويُعلن بداية النور بعد الظلمة، ففي البيئة الطبيعية، الصبح هو مرحلة الانتقال من الظلام إلى الضوء، ومن السكون إلى الحركة، وهو لحظة فجر الحياة والنشاط.

فالصبح في تصور شعر صدر الإسلام والمتمثل في الأبيات السابقة صار للدلالة على ظهور الدين الجديد (الإسلام) وعلى نوره الذي بدأ ثم هو في طريقه إلى إضاءة الدنيا وما فيها، ومن ثَمّ فإنّ (الصبح) تحوّل من الدلالة الزمانية على توقيت يومي إلى الدلالة على ظهور الإسلام وانتشاره، والتحوّل من حالٍ إلى حالٍ أفضل إشراقًا وجدّة.

والشاعر يقارن بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم)، وتلاوته للقرآن بـــ"انشقاق الصبح"؛ أي أن مجيء النبي (صلى الله عليه وسلم) كان بمثابة فجر روحي، أنار القلوب والعقول بعد ظلمة الجهل والكفر. وليس الصبح في قوله: (انشقّ معروفٌ من الصبح ساطعُ)، مجرد ظاهرة بيئية، بل رمز لانكشاف الحقيقة وظهور الهداية. وهذه الصورة تعزز المعنى القرآني للصبح كآية إلهية: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، (التكوير: آية18)، أي أنه علامة حياة وتجدد ورحمة.

ومن خلال هذا النص نلمس تكاملا بين البيئة والإيمان؛ فالصبح في البيت ليس فقط خلفية زمنية، بل له وظيفة رمزية تؤكد أن الإسلام جاء في وقت الظلمة الروحية، كما يأتي الصبح بعد الليل. فضلا عن ذلك فإن تلاوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) للقرآن تقترن بطلوع الصبح، مما يُوحِي بأن كلام الله ينير الدنيا كما تُنير الشمس الكون.

ومن ثم يُوظَّف الصبح في البيت كرمز للهداية، والنبي (صلى الله عليه وسلم) هو من يأتي بالنور الروحي كما يأتي الصبح بالنور الحسي. والشاعر هنا يوحّد بين الظواهر الكونية (الصبح)، والحقائق الإيمانية (الوحي)؛ ليؤكد أن الإيمان انسجام بين الإنسان والكون.

وبذلك يكون للإسلام دور كبير في بناء التصورات البيئية عند شعراء هذه الحقبة الزمنية –أعني صدر الإسلام– الذين تغيرت أحوالهم الدينية والاجتماعية، ومن ثمّ تغيرت رؤيتهم الشعرية، وتصوراتهم لما في البيئة من عناصر مختلفة، التي وظّفوها لإنتاج دلالات إيمانية متنوعة.

(الخاتمة، وأهم النتائج)

في ضوء هذه القراءة الإيكولوجية لشعر صدر الإسلام، يتبيّن أن العلاقة بين الإنسان والطبيعة لم تكن علاقة وظيفية نفعية فحسب، بل علاقة روحية إيمانية عميقة؛ فقد انطوى هذا الشعر على وعي بيئي مبكّر، تتجلى فيه الطبيعة بوصفها مرآةً للتوحيد، وسياقًا دلاليًّا يعكس معاني الإيمان والخشوع والتسليم لعظمة الخالق. وقد عبّر الشعراء عن عناصر الطبيعة من ظواهر كونية، ومادية، لا بوصفها مظاهر جمالية فحسب، بل بوصفها دلائل حيوية على القدرة الإلهية، ومناسبات تأملية تُعمّق من وعي الإنسان بموضعه في الكون. من هنا، تتجلى أهمية هذه المقاربة في إعادة قراءة هذا الشعر خارج الإطار الجمالي التقليدي، باتجاه تفكيك أبعاده البيئية والتأويلية. ومن أهم النتائج التي توصّلت إليها، ما يأتي:

1- شكّلت البيئة غير الحيّة في شعر صدر الإسلام فضاءً دينيًا، تُستحضر فيه عظمة الخالق وقدرته، ما يعكس توظيفًا إيمانيًّا للعناصر البيئية في الشعر العربي في ذلك العصر.

2- برزت في النصوص الشعرية مظاهر وعي بيئي مبكّر، تمثّل في احترام مظاهر البيئة المختلفة، وعدم العبث بها، وهو ما يُعدُّ تمهيدًا لفكرة "البيئة الأخلاقية" المرتبطة بالإيمان.

3- وظّف شعراء صدر الإسلام عناصر بيئية غير حيّة مختلفة، بوصفها رموزًا دينيةً، من أبرزها:(الماء، والنار، والأرض، والجبال، والسماء، وغيرها)، تُحيل إلى مفاهيم عقدية: مثل: الصفاء، والثبات، والقدرة، والتوحيد بالله سبحانه وتعالى، والإيمان بوجوده.

4- القراءة الإيكولوجية تُعيد الاعتبار لوظيفة الشعر الديني في تشكيل رؤية كونية توحيدية، تتكامل فيها عناصر الطبيعة مع البعد الغيبي والروحي.

5- أثبتت القراءة النقدية أن الشعر الإسلامي المبكّر ليس مجرد خطاب دعوي فحسب، بل هو نصّ متفاعل مع البيئة، حامل لأبعاد معرفية وروحية، يستحق مقاربات متعدّدة التخصّصات.

(قائمة المصادر والمراجع)

القـــــــــــــرآن الكـــــــــــــريم.

1. ابن ثابت، حسّان، (1994م)، ديوان حسان بن ثابت، (ط2)، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ: عبد أمهنا، بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية.

2. ابن ربيعة، لبيد، (2004م)، ديوان لبيد بن ربيعة العامري، (ط1)، اعتنى به: حمدو طمّاس، دار المعرفة.
3. ابن رواحة، عبد الله، (1982م)، ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، (د.ط)، وليد قصاب، دار العلوم.
4. ابن زهير، كعب، (1997م)، ديوان كعب بن زهير، (ط1)، تح الأستاذ: علي فاعور، بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية.
5. ابن مالك، كعب، (1997م)، ديوان كعب بن مالك، (ط1)، تح: مجيد طراد، بيروت: دار صادر.
6. إيمان، لقدم، رواية كاماراد للصديق الحاج أحمد في ضوء النقد البيئي، (2023م)، (رسالة ماجستير)، الجزائر: جامعة بحاج شعيب – عين تموشنت.
7. بدران، محمد أبو الفضل، (2015م)، أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية، دبي: مجلة المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية.
8. برانش، مايكل، (2007م)، النقد الإيكولوجي: الطبيعة في النظرية والممارسة الأدبيتين، ترجمة: معين رومية، مجلة نوافذ، ع36، جمادي الأولى .
9. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي(ت ٦٨٥هـ)، (1418ه)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (ط1)، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
10. حمداوي، جميل، (د.ت)، نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة، (د.ط)، شبكة الألوكة.
11. الرازي، فخر الدين، (1420هـ)، مفاتيح الغيب "التفسير الكبير"، (ط3)، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
12. الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق(ت٣١١ه)، (1988م)، معاني القرآن وإعرابه، (ط1)، تح: عبد الجليل عبده شلبي، بيروت: عالم الكتب.
13. الزوزني، حسين بن احمد بن حسين، (2002م)، شرح المعلقات السبع، (ط2)، دار احياء التراث العربي.

14. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، (2001م)، تفسير الطبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، (ط1)، تح: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.
15. العسكري، أبو هلال، (1419هـ)، كتاب الصناعتين، (د.ط)، تح: علي محمد البجاوي/ محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: المكتبة العصرية.
16. عطية، إسلام ربيع السعيد، (2023م)، أنسنة الطبيعة الصامتة في شعر ابن خفاجة ت533هـ- دراسة في ضوء النقد البيئي (الإيكولوجي)، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة دمياط، مج12، ع6.
17. العنتبلي، عبد الناصر محمد، (2022م)، شعر معروف الرصافي في ضوء النقد الإيكولوجي، حولية كلية اللغة العربية بجرجا، مج26، ج5.
18. القرطبي، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري (ت671هـ)، (1964م)، الجامع لأحكام القرآن، (ط2)، تح: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية.
19. القشيري، عبد الكريم بن هوازن، (د.ت)، لطائف الإشارات "تفسير القشيري"، (ط3)، تح: إبراهيم البسيوني، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
20. القيرواني، ابن رشيق، (1981م)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، (ط5)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل.
21. الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور (333هـ)، (2005م)، تفسير الماتريدي "تأويلات أهل السنة"، (ط1)، تح: الدكتور مجدي باسلوم، بيروت: دار الكتب العلمية.
22. الماوردي، أبو الحسن، (د.ت)، تفسير الماوردي "النكت والعيون"، (د.ط)، تح: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، بيروت: دار الكتب العلمية.
23. محمد، هاني علي سعيد، (2022م)، النقد الأدبي البيئي قراءة في مدونة الدراسات العربية البيئية وممارسة تطبيقية غلى قصة "رأيت النخل" لرضوى عاشور، مجلة كلية الآداب جامعة الفيوم، ع26، يناير.

24. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين، (1998م)، تفسير النسفي "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"، (ط1)، حقّقه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، بيروت: دار الكلم الطيب.

25. النظم البيئية: ما هي وأهميتها؟، (مقال إلكتروني): https://www.enelgreenpower.com/learning-hub/sustainable-development/ecosystems

26. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد (ت ٤٦٨هـ)، (1430هـ)، التفسير البسيط، (ط1)، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.